القدس أمانة عمر.. في انتظار صلاح الدين

أ.د/ محمد عمارة (*)

القُدُس قبل الإسلام:

في الألف الرابعة قبل الميلاد، بنى الكنعانيون - أهل فلسطين «مدينة يورد سالم» أو «يوروشالم» ومن اسمها هذا جاءت تسميتها الغربية Jerusslem في اللغات اليونانية واللاتينية والألمانية والفرنسية والإنجليزية وغيرها.. ومن هذا الاسم أيضًا جاءت تسميتها في «العهد القديم» بـ«أورشليم».

ولقد بدأ تاريخ العبرانيين الاتصال بهذه المدينة الكنعانية، عندما استخلف الله عليها داود -عليه السلام- في القرن العاشر قبل الميلاد، أي بعد نحو ثلاثة آلاف عام من تأسيسها على يد الكنعانيين!.. ولم تدم هذه السيطرة العبرية على هذه المدينة لأكثرمن أربعة قرون (٤١٥ عامًا).. أي إلى التاريخ الذي هدمها فيه البابليون، الذين أزالوا (مملكة يهوذا) من الوجود سنة ٥٨٥ ق. م، وبدءوا حقبة (السبي البابلي) للعبرانيين.

وحتى بعد سماح الفرس لبعض العبرانيين بالعودة إلى أرض كنعان، كانت عودة الذين عادوا منهم إليها، عودة استيطان بلا دولة، وبلا سيادة على مدينة (أورشليم).

لكن هذا الوجود اليهودي قد عاد وأثار حفيظة الدولة الرومانية، فدمروا هذه المدينة مرتين، الأولى على يد الإمبراطور «تيطوس» Titus (٣٩ - ٨١ م) في سنة ٧٠م.. والثانية على يد الإمبراطور «هدريانوس» سنة ١٣٥م، وذلك عندما محاها محوًا تامًا، بل وغير اسمها إلى «إيليا كابيتولينا» - أي إليا العظمى - وهو الاسم الذي ظل علمًا عليها حتى الفتح الإسلامي لها (١٥هـ - ٦٣٦م) في خلافة الراشد الثاني الفاروق عمر بن الخطاب (٤٠ ق. هـ ٢٣ - هـ ٥٨٤ - ٦٤٤م).

وفي السنوات الأربع المائة، التي سيطر فيها العبرانيون على هذه المدينة، احتكروا قداستها لمقدساتهم وحدهم، دون غيرهم من الشعوب التي كانت تقطن أرض كنعان في ذلك التاريخ، وهي الشعوب التي بنت هذه المدينة قبل ثلاثة آلاف عام من دخول داود -عليه السلام- إليها.. وظلوا يمارسون هذا الاحتكار، بل والاضطهاد، مع النصرانية والنصارى منذ بعثة المسيح عيسى بن مريم -عليه السلام-.

وبعد تدين الدولة الرومانية بالنصرانية -

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

(في القرن الرابع الميلادي) - كانت قدسية هذه المدينة «إيليا».. وقفًا على النصارى، الذين اضطهدوا اليهود، وجعلوا أماكن «هيكلهم» - بعد هدمه مجمعًا للقمامة والقاذورات، تُجلب إليه من داخل المدينة وخارجها!.. حتى لقد طلبوا من عمر بن الخطاب، عند تسلمه للمدينة بعد فتحها أن يضمن لهم «ألا يساكنهم فيها أحد من اليهود»!

ذلك هو تاريخ هذه المدينة قبل الإسلام.

التاريخ الإسلامي للقدس:

لكن فتح الإسلام والمسلمين لهذه المدينة «يوروسالم - أورشليم - إليا» كان بداية عصر جديد.. فالإسلام والمسلمون هم الذين أعطوا لهذه المدينة القداسة والقدسية، حتى في اسمها الجديد، فسميت بـ«بيت المقدس» و«القدس» منذ ذلك التاريخ.. ولأول مرة في تاريخها الديني، تصبح قداستها عامة لجميع أمم الرسالات السماوية - اليهودية والنصرانية.. والإسلام - فلم تعد حكرًا لأبناء دين دون غيرهم من أبناء الديانات الأخرى.

فأماكن المقدسات اليهودية مهدومة منذ قرون، والتي جعلها الروم - «مجمعًا للقمامة والقاذورات».

وذهب إليها عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بعد أن تسلم المدينة، وعقد مع أهلها (العهد العمري) الشهير، «فوجد على الصخرة زبلًا كثيرًا، مما طرحه الروم غيظًا لبني إسرائيل، فبسط رداءه، وجعل يكنس ذلك الزبل، وجعل المسلمون يكنسون معه الزبل».

وتتبع المسلمون أماكن عبادة الأنبياء السابقين واحدًا واحدًا، ابتداء من إبراهيم إلى آخر من دفن منهم في فلسطين وبيت المقدس، فأقاموا فيها المساجد، وحافظوا على قداستها، وطهروها تطهيرًا» - (د. إسحاق موسى الحسيني «مكانة بيت المقدس في الإسلام» كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية - ص٥٧، ٥٨ - سنة ١٩٦٨م).

لقد أحل المسلمون هذه المدينة مكانًا فريدًا تميزت به عن كل المدن التي فتحوها، وذلك عندما لم يتسلمها القائد الفاتح - وهو «أمين الأمة» أبو عبيدة بن الجراح (٤٠ ق هـ - ١٨هـ ٥٨٤ - ٦٣٩م) - وكان تسليمها للخليفة عمر بن الخطاب، الذي ركب من «المدينة المنورة» إليها، ليتسلم أمانتها، وليعقد بنفسه «العهد العمري، مع بطريركها صفرونيوس (١٧ هـ - ٦٣٨م).. ولتكون لها بهذه الخصوصية مكانة «أمانة الفاروق عمر» لدى أمة الإسلام!

وهو شرف لم تحظ به مدينة من المدن التي فتحها المسلمون، عبر تاريخ الفتوحات.

وبتغير اسم هذه المدينة إلى «القدس» و«بيت المقدس»، رفع المسلمون عليها رايات القدسية والتقديس وبتحرج عمر بن الخطاب - عندما كان يجلس «صفرونيوس» في كنيسة القيامة - من أن يصلي في الكنيسة، رغم دعوة البطريرك، كي لا تكون لمسلم شبهة حق في أرض الكنيسة يقيم فيها مسجدًا.

بهذا الموقف العمري أضفى عمر بن الخطاب تقديس الإسلام لمقدسات النصارى.. ولم يكن عمر في ذلك «مبتدعًا»، بل ولا حتى «مجتهدًا»، لأنه هو المؤمن بالعقيدة الإسلامية، التي لا تكتمل أركانها إلا بالإيمان بسائر الرسل وجميع الرسالات، وكل الكتب التي سبقت رسالة محمد ﷺ، كما يقول القرآن الكريم:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ٢-٥)

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾

(البقرة : ٢٨٥)

وهو - عمر - الذي يتعبد بالقرآن الكريم، الذي عرض لمقدسات أمم الرسالات السماوية جميعًا، فبدأ بالصوامع وانتهى بالمساجد

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

(الحج : ٤٠)

بهذا الموقف العمري، بدأت الحقبة الإسلامية في تاريخ المدينة، فغدت قداستها عامة لعامة أبناء رسالات السماء.. فكنيسة القيامة قدس خاص بالنصارى.. ومواطن المقدسات اليهودية، أعاد إليها عمر والمسلمون الطهارة عندما رفعوا عنها القمامة والقاذورات.. وارتفعت في المدينة عمائر المساجد الإسلامية.

صنع المسلمون ذلك؛ لأنهم أمة الرسالة الخاتمة، التي ورثت كل مواريث الأنبياء والمرسلين، فكانت رسالة رسولهم اللبنة التي تممت بناء دين الله الواحد، وحملت أمانة الحفاظ على سائر لبنات هذا البناء، فأمة الشريعة التي أكملت الدين الإلهي الواحد هي الحاملة لأمانة الحفاظ على مقدسات سائر شرائع هذا الدين لأنها وحدها التي تعترف بشرعية سائر شرائع هذه الأديان.

والمسلمون صنعوا ذلك مع (القدس) تحديدًا، لأن قرآنهم الكريم قد جعل الرباط بين (القدس) وبين (الحرم المكي) الذي هو قبلة الأمة الخاتمة - آية من آيات الله، وليس مجرد رباط سياسي أو إداري، يقيمه فاتحون وينقضه غزاة!..

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾

(الإسراء : ١)

فكان الإسراء - إسراء الله بعبده ورسوله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى - وعروجه من الصخرة إلى سدرة المنتهى، الإعلان الإلهي عن ختم هذه الرحلة القدسية لخطوات الأنبياء والرسل على طريق الله، وعن حمل أمة الرسالة الخاتمة أمانة الجهاد في سبيل الحفاظ على مقدسات كل الرسالات، تلك التي تجسدها مدينة القدس قبل غيرها، وأكثر من غيرها من المدن والبقاع.

ولقد شهد التاريخ الإسلامي للقدس، بأحرف من نور، على وفاء الأمة الإسلامية بهذه الأمانة التي أرادها الله، والتي رمزت إليها رحلة الإسراء والتي سلمها إياها عمر بن الخطاب.. فغدت القدس، منذ ذلك التاريخ مشاعة القداسة، مفتوحة الأبواب لكل أبناء رسالات السماء.. ازدهرت فيها، إلى جانب المساجد الإسلامية كنائس النصارى.. وأخذ اليهود يعودون إلى سكناها، بعد أن حرموا من ذلك في العهد الروماني.

بل لقد تولت الأسر المسلمة المقدسية (نظارة الأوقاف) التي أوقفها النصارى على كنائسهم، إذ اختارهم النصارى لذلك، فرعوا المقدسات النصرانية على امتداد التاريخ الإسلامي.

وشاء الله أن تظل هذه «الأمانة» من خصائص الأمة الإسلامية، والدول الإسلامية دائمًا وأبدًا.. فطالما كانت السيادة على القدس لأمة الرسالة

التي لا تحتكر التدين بدين الله.. ولا تحتكر النبوات والرسالات.. ولا تدفعها العنصرية إلى احتكار القدسية لأماكن عباداتها.. طالما ساد هذا الحال، كانت الأبواب مفتوحة في القدس لكل أمم الرسالات.

أما في فترات تراجع هذا التوجه، وهزيمة الدولة الإسلامية، وانحسار سيادة المسلمين عن القدس.. في الحقبة الصليبية القديمة.. والحقبة اليهودية المعاصرة - فإن الاحتكار لقداسة القدس يعود ليطل بوجهه الكئيب!

حدث ذلك في تاريخ القدس.. حتى لكأنه القانون الذي لا تبديل له ولا تحويل!!

في الحقبة الصليبية:

كان الضعف قد أصاب القوى الثلاث التي تقاسمت حكم الشرق الإسلامي: العباسيين.. والفاطميين.. والسلاجقة.. فانتهز الغرب الفرصة ليعيد سيطرته على الشرق، تلك التي كان قد أقامها الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٤ق.م)، والتي أزاحتها فتوحات الإسلام!

وفي مدينة «كليرمونت» بجنوب فرنسا، تكرس الحلف الغربي، الذي قاده «البابا الذهبي» أربان الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩م) والذي مولته المدن التجارية الإيطالية، الطامعة في السيطرة على طرق التجارة الدولية العابرة للشرق الإسلامي.

وكانت القوة الضاربة لهذه الموجة الغازية هم فرسان الإقطاع الأوروبيين.. الذين حدد لهم البابا مهمة الغزوة الصليبية عندما خاطبهم - في «كليرمونت» سنة ١٠٩٥م.

فقال أنتم فرسان أقوياء، ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم.. ولكن، تعالوا وحاربوا الكفار - المسلمين - يا من تنابذتم اتحدوا.. يا من كنتم لصوصًا كونوا الآن جنودًا.. تقدموا إلى (البيت المقدس).

انتزعوا تلك الأرض الطاهرة، واحفظوها لأنفسكم، فهي تدر سمنًا وعسلًا؟!

إنكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق؟!

وهكذا.. رغم (البابوية).. وأعلام الصليب.. والتهيج الديني.. والحديث عن مهد المسيح.. فإن كلمات البابا أفصحت عن مقاصد (الغزوة - الصفقة)، وراثة ممالك الشرق، التي تدر سمنًا وعسلًا!.. وحل تناقضات أمراء الإقطاع بتوجيه قواهم لتدمير (المسلمين - الكفار)!

فبدأت في العام ٤٨٩هـ - ١٠٩٦م أولى حملات الغزوة الصليبية التي دامت قرنين من الزمان.. والتي أصبح قتل المسلمين فيها، ونهب بلادهم، واحتلال أوطانهم، وإقامة الإمارات والممالك اللاتينية في فلسطين وما حولها.. أصبح كل ذلك (مهنة.. ووظيفة) لأمراء الإقطاع الأوروبيين.

وبعبارة المؤرخ المسيحي (مكسيموس مونروند) - صاحب كتاب (حرب الصليب) - «فإن الكثير من الأشراف والعظماء صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة مهنة صناعية لاحتشاء - (جمع) - الأموال الغنية، بل إن التعطش نحو أخذ الغنائم وحده كان يجذب الجيش إلى المحاربة»؟!

ومع مطلع القرن الحادي عشر الميلادي كانت الإمارات الصليبية التي أقامها الغزاة في المشرق العربي قد قطعت الوحدة الأرضية لعالم الإسلام.

ففي شمال العراق وسوريا قامت إمارتا (الرها) و(أنطاكية).. وبعد اقتحام القدس قامت (مملكة أورشليم)، التي وصلت حدودها إلى خليج العقبة؟! عازلة مصر والمغرب والأندلس عن مشرق وطن العروبة وعالم الإسلام!!

ولقد كان احتلال القدس نموذجًا لممارسات

(اللصوص الذين صاروا جنودًا).

فلقد حاصرها سبعون ألفًا وكانت الحامية المدافعة عنها ألف جندي مصري.. فسقطت بيد الصليبيين بعد صمود دام ثمانية وثلاثين يومًا.

ويحكي المؤرخ المسيحي «مكسيموس مونروند» كيف «انعقد ديوان المشورة العسكرية الصليبي - في ذات المكان الذي فيه مخلصنا غفر لصالبيه - فقرر أن يمات - (يُقْتَل) - كل مسلم باق داخل المدينة المقدسة»!

واستمرت المجزرة أسبوعًا كاملًا.. ومن هرب في البيوت والأقبية قبضوا عليه وقذفوا به من أعالي البيوت والبروج في النار؟!

أما الذين احتموا بجامع عمر بن الخطاب، فلقد غدت دماؤهم سيلًا علا إلى حد الركب، بل إلى حد لجم الخيل.. كما يقول (مكسيموس)!

وفي الرسالة التي بعثوا بها إلى البابا، يبشرونه بما صنعوا قالوا، مفاخرين: «إذا أردت أن تعرف ما يجري لأعدائنا، فثق أنه في معبد سليمان (جامع عمر) كانت خيولنا تغوص إلى ركبها في بحر دماء الشرقيين..»؟!

مرحلة عزل مصر:

وبعد مرحلة تثبيت الكيانات الصليبية المزروعة في الأرض المغتصبة.. بدأت مرحلة الهيمنة الاقتصادية على المنطقة بأسرها بالسيطرة على التجارة وطرقها وبفرض الإتاوات - بل والجزية على الإمارات والدول الإسلامية!

وبعد عزل مصر عن المشرق، بدأت محاولات غزوها والسيطرة عليها.

ولقد استعانوا على ذلك بضعف النظام الفاطمي الحاكم، والذي عزلته مذهبيته «الإسماعيلية - الباطنية» عن جمهور الأمة (السُّني).. وبصراعات جنودها - ذوي الأصول المتعددة والغريبة - وبصراعات وزرائها (شاور) (٥٦٤هـ - ١١٦٩م) و(ضرغام) (٥٥٩هـ - ١١٦٤م)!.. حتى لقد أقامت حامية صليبية على أبواب القاهرة، ومعها مفاتيح أبواب أسوارها؟!.. وصالح الوزير (شاور) الصليبيين على جزية مقدارها مليون دينار؟!

وكتب (غليوم الصوري)، مصورًا سيطرة الصليبيين على اقتصاديات الشرق يومئذ فقال:

«كانت خزائن مصر تحت تصرفنا، وسلطنة أورشليم كانت آمنة من جهة البر المصري، ومسلك البحر كان حرًا.. كما أن موانئ أقاليم مصر كلها كانت مفتوحة لقبول مراكبنا، وتجارها كانوا ينقلون إلى موانئ بلادنا غلات أراضيها، وهذه المتاجر كانت كلية الفوائد لنا.. وكانت الجزية والخراجات توفى لنا بانتظام»؟!

استنهاض روح المقاومة:

لكن التحدي، الذي اقتطع الأرض.. ومزق وحدة الوطن.. ونهب الثروة.. وسيطر على الاقتصاد.. قد استنفر روح المقاومة في الأمة.

فبدأت «دول الفروسية الإسلامية» تواجه إمارات فرسان الإقطاع الصليبيين.. (الدولة الزنكية) التي قادها عماد الدين زنكي (٥٦٥هـ - ١١٧٠م) - في (الموصل) - والتي حررت شمال العراق وسوريا، وأزالت (كونتيه الرها) (٥٣٩هـ - ١١٤٥م) - أي بعد نحو نصف قرن من بداية الحملة الصليبية - ثم انتقلت بعاصمتها - في عهد نور الدين الشهيد (٥١١ - ٥٦٩هـ - ١١١٨ - ١١٧٤م) - إلى مدينة (حلب) لتزيد الضغط على الكيانات الصليبية.. ولتبدأ صفحة من الصراع (الحربي - والسياسي) بين الفريقين على مصر؟!

فنور الدين يريد الالتحام بها، ليحكم من الجنوب - طوق الحصار حول الكيان الصليبي، لزيادة الضغط عليه من الشمال والشرق والغرب والجنوب، تاركًا أمامه موانئ الشاطئ الشامي للبحر المتوسط، ليرحل عنها كما جاء منها؟!

والصليبيون يريدون مصر، لمنع طاقاتها عن أن تصب في الصراع ضدهم، ولتظل عازلاً عن مدد المغرب والأندلس، وللحيلولة دون نجاح استراتيجية نور الدين!

وعبر سنوات (٥٥٩ - ٥٦٤هـ - ١١٦٣ - ١١٦٨م) تكررت المواجهات بين جيوش الفريقين على أرض مصر.

لكنها حسمت في المرة الثالثة لصالح جيش نور الدين، الذي قاده أسد الدين شيركوه، الذي تولى وزارة مصر للخليفة الفاطمي العاضد (٥٤٤ - ٥٦٧هـ، ١١٤٩ - ١١٧١م).. وعندما توفي أسد الدين خلفه في القيادة والوزارة الناصر صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩هـ - ١١٣٧ - ١١٩٣م) في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤م.. ليفتح بذلك صفحة جديدة ومجيدة في تاريخ هذا الصراع.. بل وفي سفر التاريخ بإطلاق!

الشعر والتاريخ:

كان (الشعر) في ذلك التاريخ، هو أداة الأمة للتعبير عن (ثقافتها) و(إعلامها)!.. وعندما تحققت وحدة مصر والمشرق، عبر الشعر عن دور هذا الإنجاز في تحقيق استراتيجية تحرير فلسطين.. والتي كانت القدس رمزها المقدس.. فـ(العماد الكاتب) - وهو يهنئ أسد الدين شيركوه بانتصاره في مصر، يذكره أن هذا الفتح هو في سبيل تحرير القدس:

فتحت مصر، وأرجو أن تصير بها
ميسرًا فتح بيت القدس عن كثب

وعندما يهنئ نور الدين يذكره بأن شروط تحرير القدس - وهي وحدة مصر والشام - قد تحققت:

اغز الفرنج فهذا وقت غزوهم
واحطم جموعهم بالذابل الحطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما
في عقد عز من الإسلام منتظم

أما الشاعر ابن عساكر علي بن الحسن هبة الله، فإنه يعلن أن لا عذر عن تأخير المعركة بعد توحيد الطوق وإحكامه حول كيانات الصليبيين فيقول لنور الدين:

ولست تُعْذَر في ترك الجهاد وقد
أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل
لما تريد.. فبادر فجأة النوب!

لكن الأجل لم يمهل نور الدين ليحقق هذه الاستراتيجية التي تحدث عنها الشعراء.. وبعد وفاته، وجد صلاح الدين الأيوبي نفسه أمام (المهام العملية) اللازمة لتحقيق هذه الاستراتيجية في (أرض الواقع) وليس فقط في شعر الشعراء!